

القَصَصُ الدِّينِي
الطبعة الرابعة
العرب في أوربا

الحكيم بن الفضل

عبد الحميد جودة السحار

١٧

مات الناصر ، فاعتلى الحكم المستنصر بالله سرير
 الملك ، ثانی يوم وفاة أبيه ، وبعث الكتب إلى البلاد
 بتمام الأمر له ، ودعا الناس إلى بيعته ، وأول ما أخذ
 البيعة على صقالبة قصره ، وتكفلوا بأخذها على من
 وراءهم وتحت أيديهم من طبقتهم .

وكمّلت بيعة أهل قصره ، وأمر عظيم دولته
 جعفر بن عثمان المصحفي ، بالإسراع إليه بأخيه أبي
 مروان غبيد الله المتخلف ، ليبيعه على الخلافة ،
 وأرسل عظيمًا آخر للإتيان بشقيقه الثاني . ونفذ
 غيرهما من وجوه الرجال في الخيل ، لإتيان غيرهما
 من الإخوة ، وكانوا يومئذ ثمانية ، فوافي جميعهم

الزَّهْرَاءُ فِي اللَّيْلِ .

وَفِي الصَّبَاحِ ، قَعَدَ الْمُسْتَصِرُّ بِاللَّهِ عَلَى سَرِيرِ
الْمَلِكِ ، فِي الْبَهْوِ الْأَوْسَطِ ، مِنْ الْأَبْهَاءِ الْمَذْهَبَةِ
الْقِبْلِيَّةِ ، الَّتِي فِي السَّطْحِ الْمُرْدِ ؛ فَدَخَلَ إِخْوَتُهُ
عَلَيْهِ ، فَكَانُوا أَوَّلَ الْمُبَايَعِينَ ؛ وَأَنْصَتُوا لَصَحِيفَةِ
الْبَيْعَةِ ، وَالتَّزَمُوا الْأَيْمَانَ الْمَنْصُوصَةَ ، لِكُلِّ مَا انْعَقَدَ
فِيهَا ، ثُمَّ بَايَعَ بَعْدَهُمُ الْوُزَرَاءُ ، وَأَوْلَادُهُمْ وَإِخْوَتُهُمْ ،
ثُمَّ أَصْحَابُ الشَّرْطَةِ ، وَطَبَقَاتُ أَهْلِ الْخِدْمَةِ ؛ وَقَعَدَ
الْإِخْوَةُ وَالْوُزَرَاءُ وَالْوُجُوهُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ .

وَاصْطَفَى فِي الْمَجْلِسِ أَكْبَرُ الْفَتَيَانِ يَمِينًا وَشِمَالًا ،
إِلَى آخِرِ الْبَهْوِ ، كُلُّ مِنْهُمْ عَلَى قَدَرِهِ فِي الْمَنْزِلَةِ ،
عَلَيْهِمُ الظُّهَائِرُ الْبَيْضُ ، شِعَارُ الْحُزْنِ فِي الْأَنْدَلُسِ ،
فَقَدْ أُعْلِنَ الْحِدَادُ لِمَوْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ ، أَعْظَمَ
مِنْ حَكْمِ الْأَنْدَلُسِ .

اصطفَ الفتيانُ الصَّقَالِيَّةُ الخُصَيَّانَ ، وقد لَبِسُوا
 البياضَ ، بأيديهمُ السُّيُوفَ ، يتَّصِلُ بهم من دُونِهِم
 من طبقاتِ الفتيانِ الصَّقَالِيَّةِ ؛ ثُمَّ تَلَاهُمُ الرُّمَاءُ
 متَنَكِّبِينَ قِسِيَّهِم وجِعَابِهِم ؛ ثُمَّ وَصَلَتْ صُفُوفُ
 هؤلاء الخُصَيَّانِ الصَّقَالِيَّةِ ، وصفوفُ العبيدِ الفُحولِ ،
 شاكية في الأسلحةِ الرَّائِقَةِ ، والعُدَّةِ الْكَامِلَةِ ؛
 وَقَامَتِ التَّعَبُّةُ فِي دَارِ الْجُنْدِ : الْعَبِيدُ عَلَيْهِمُ الْجَوَاشِينُ
 وَالْأَقْيِيَّةُ الْبَيْضُ ، وَعَلَى رُءُوسِهِمُ الْبَيْضَاتُ
 الصَّقَلِيَّةُ ، وبأيديهمُ التُّرَاسُ الْمَلَوْنَةُ ، وَالْأَسْلِحَةُ
 الْمُرَيَّنَةُ .

وعلى بابِ السُّدَّةِ الْأَعْظَمِ ، الْبَوَابُونَ وَأَعْوَانُهُمْ ؛
 وَمِنْ خَارِجِ بَابِ السُّدَّةِ فُرْسَانُ الْعَبِيدِ ، إِلَى بَابِ
 الْأَقْبَاءِ ، وَاتَّصَلَ بِهِمْ فُرْسَانُ الْحَشَمِ ، وَطَبَقَاتُ الْجُنْدِ
 وَالْعَبِيدِ وَالرُّمَاءُ ، مُوكِّبًا إِثْرَ مُوَكِّبٍ ، إِلَى بَابِ الْمَدِينَةِ

الشارع إلى الصحراء .

وتمت البيعة للحكم ، فأذن للناس بالانصراف ،
إلا الإخوة والوزراء وأهل الخدمة ، فإنهم مكثوا
بقصر الزهراء ، ليحتملوا جسد الناصر ، إلى قصر
قرطبة ، ليقبروه في تربة الخلفاء .

٢

مات الناصر ، فطمع الجلالقة في الثغور ، فغزاهم
الحكم بنفسه ، وفتح سنت استيباني عنوة ،
واستباحها . ثم عاد إلى قرطبة ، وبعث قائده ومولاه
غالبًا الناصري ، إلى بلاد جليقية . فانطلقت الجيوش
الإسلامية إلى مدينة سالم ، الواقعة على رافد من
روافد نهر طرطوشة . وعلم الجلالقة بخروج غالب ،
فجمعوا له الجموع ، وساروا للقاءه ، وما إن التقى

الجمعان ، حتى انهزمَ الجلالقة ، ونصرَ اللهُ غالبًا
نصرًا مُؤزِّرًا .

رأى أردون ، المتَمَلِّكُ على طوائف من الأمم
الجلالقة ، والمنازعُ لابنِ عمِّه حسنو (شأنجه) ، الذى
ارتبطَ بمعاهدةٍ مع الناصر ، نصرَ غالب ، وبلغه
اعتزامُ الحَكَمِ على غزوِ بلاده ، فقرَّرَ المسيرَ إلى بابِ
الحكم ، غيرَ طالبِ إذن ، ولا مُستَظهرٍ بعهد .

خرجَ أردونُ فى عِشرينَ رجُلًا من وجوه
أصحابه ، وقابلَ غالبًا ، والتَمَسَ منه أن يذهبَ به
إلى الحَكَمِ مَولاه ، فسارَ غالبٌ وأردونُ وأصحابُه
إلى قُرطبة ، وبلغَ الحَكَمَ مسيرُهم نحوَه ، فأرسلَ
كُتَيْبَةً من الحشم ، لتَلْقَى غالبًا الناصِرَى .

ونزلَ أردونُ وأصحابُه قُرطبة ، وفى ثانى يومٍ
نُزولِهِم ، أرسلَ إليهمُ الحَكَمُ جيشًا عظيمًا كاملًا

التعبئة ، تحرك بهم إلى القصر ، فلما بلغ أردون باب
السدة ، وباب الجنان ، سأل عن مكان قبر الناصر ،
فأشير إلى ما يوازي موضعه من داخل القصر من
الروضة ، فخلع قلنسوته ، وخضع نحو مكان القبر
ودعا ، ثم رد قلنسوته إلى رأسه .

بقي أردون يوم الخميس والجمعة ينتظر الإذن له
بالمثول بين يدي الحاكم ، وفي يوم السبت عيى
الجيش ، وأقيم الترتيب ، لاستقبال أردون ، فقعد
المستنصر بالله على سرير الملك ، في المجلس الشرقي
من مجالس السطح ، وقعد الإخوة وبنوهم والوزراء ؛
وجىء بأردون وقد لبس ثوبا ديباجيا روميا أبيض ،
وعلى رأسه قلنسوة رومية ، منظومة بجوهر ، وقد
حفته جماعة من نصارى وجوه الذمة بالاندلس ،
يونسونه ويصرونه ، فيهم وليد بن خيزون ، قاضي

النَّصَارَى بِقَرْطُبَةٍ ، وَعَبِيدُ اللَّهِ بْنِ قَاسِمٍ ، مُطْرَانُ
طَلِيطَلَّةَ ، وَرَاحُوا يَتَقَدَّمُونَ عَلَى جِيَادِهِمْ .

دَخَلَ أَرْدُونُ بَيْنَ صَفَى الْجُنْدِ ، يُقَلِّبُ الطَّرْفَ فِي
نَظْمِ الصُّفُوفِ ، وَيُجِيلُ الْفِكْرَ فِي كَثْرَتِهَا ، فَرَاغَهُ
مَا رَأَى . وَصَلَ إِلَى بَابِ الْأَقْبَاءِ ، أَوَّلِ بَابِ قَصْرِ
الزَّهْرَاءِ ، فَتَرَجَّلَ الْجَمِيعُ . وَتَقَدَّمَ الْمَلِكُ أَرْدُونُ عَلَى
جَوَادِهِ ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى بَابِ السُّدَّةِ ، ثُمَّ سَارَ عَلَى
جَوَادِهِ ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الْبَهْرِ الْأَوْسَطِ مِنَ الْأَبْهَاءِ
الْقَبْلِيَّةِ ، الَّتِي بَدَارِ الْجُنْدِ ، نَزَلَ عَلَى كُرْسَى مُرْتَفِعٍ ،
مَكْسُورِ الْأَوْصَالِ بِالْفِضَّةِ ، حَيْثُ نَزَلَ قَبْلَهُ عَدُوُّهُ
وَمُنَاوَنُهُ حَنْسُو (شَانْجِه) ، الْوَافِدُ عَلَى النَّاصِرِ ،
يُعَاهِدُهُ وَيَطْلُبُ حِمَايَتَهُ وَنَصْرَهُ .

وخرج الإذن لأردون الملك من الحكم المستنصر بالله ، بالدخول عليه ؛ فتقدم يمشى ، وأصحابه يتبعونه ، إلى أن وصل إلى السطح ، فلما قابل المجلس الشرقي الذي فيه الحكم ، وقف وكشف رأسه ، وخلع برؤسه ، وبقي حاسرا ، إعظاما لما بان له من الدنو إلى السرير . واستنهض ، فمضى بين الصفين المرتبين في ساحة السطح ، إلى أن قطع السطح ، وانتهى إلى باب البهو .

وقابل السرير ، فخر ساجدا سوية ، ثم نهض خطوات وعاد إلى السجود ، ووالى ذلك مرارا ، إلى أن قدم بين يدي الخليفة ، ومال إلى يده ، فناوله

إِيَّاهَا ، وَكَرَّ رَاجِعًا مُتَقَهِّقِرًا عَلَى عَقْبِيهِ ، إِلَى وَسَادِ
دِيْبَاجٍ مُثْقَلٍ بِالذَّهَبِ ، جُعِلَ لَهُ هُنَاكَ ، وَوُضِعَ عَلَى
قَدْرِ عَشْرَةِ أَذْرُعٍ مِنَ السَّرِيرِ .

جَلَسَ أَرْدُونُ عَلَى الْوِسَادِ ، وَالْبَهْرُ قَدْ عَلَاهُ ؛
وَوَصَلَ وَلِيدُ بْنُ حَيَّزُونَ ، قَاضِي النَّصَارَى بِقُرْطُبَةَ ،
فَكَانَ التَّرْجُمَانُ عَنِ الْمَلِكِ أَرْدُونُ ذَلِكَ الْيَوْمِ ،
فَاطْرَقَ الْخَلِيفَةُ الْحَكَمُ عَنْ تَكْلِيمِ أَرْدُونِ وَقَتًا كَيْمَا
يَهْدَأُ ، ثُمَّ قَالَ الْحَكَمُ :

— لَيْسُ رُكَّ إِقْبَالُكَ ، وَيُغْبِطُكَ تَأْمِيلُكَ ، فَلَدِينَا لَكَ
عَنْ حُسْنِ رَأْيِنَا ، وَرَحْبِ قَبُولِنَا ، فَوْقَ مَا قَدْ طَلَبْتَهُ .
فَلَمَّا تُرْجِمَ لَهُ كَلَامُهُ إِيَّاهُ ، تَطَلَّقَ وَجْهَ أَرْدُونِ ،
وَقَبَّلَ الْبِسَاطَ ، وَقَالَ :

— أَنَا عَبْدُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَحَيْثُ وَضَعْنِي مِنْ
فَضْلِهِ ، وَعَوَّضْنِي مِنْ خِدْمَتِهِ ، رَجَوْتُ أَنْ أَتَقَدَّمَ فِيهِ

بنيّة صادقة ، ونصيحة خالصة .

فقال له الخليفة :

- أنتَ عندنا بمحلٍّ من يستحقُّ حُسنَ رأينا ،
وسينالك من تقديمنا لك ، وتفضيلنا إياك على أهلِ
مِلكِكَ ، ما يُغبطُك ، وتُعرفُ به فضلَ جُودِكَ
إلينا ، واستظلالِكَ بظلِّ سُلطاننا .

فعادَ أردونُ إلى السُّجود ، وابتهلَ داعياً وقال :

- إنَّ حنسو « شاذجة » ابن عمِّي ، تقدّمَ إلى
الخليفة الماضي مُستجيراً به مني ، فكانَ من إعزازه
إيَّاه ، ما يكونُ من مثله من أعاضِمِ الملوك ، وأكارِمِ
الخلفاء ، لمن قصدهم وأملهم ، وكانَ قصدهُ قصْدُ
مُضطرٍّ ، قد كرهته رعيّته ، وأنكرت سيرته ،
واختارتني لمكانه ، من غيرِ معي مني - عِلمَ الله
ذلك - ولا دعاءٍ إليه . فخلعته وأخرجته عن ملكه ،

مضطرباً مضطهداً ، فأنعم عليه - رحمه الله - بأن
صرفه إلى ملكه ، وقوى سلطانه ، وأعز نصره ،
ومع ذلك فلم يَقم بفرض النعمة التي أسديت إليه ،
وقصر في أداء المفروض عليه ، وحقه وحق مولاي
أمير المؤمنين من بعده .

وظلَّ أردون يتودد ، ويُرَكِّي نفسه ، ويلتمس
رضا الحكم ، حتى وعده الخليفة بالنصر ، فكرر
أردون الخضوع ، وأسهب في الشكر ، وقام
بالانصراف مُقهقراً ، لا يؤلى الخليفة ظهره .

٤

وبعث ملكاً برشونة وطركونة ، يسألان تجديد
الصُلح ، وإقرارهما على ما كانا عليه ؛ وبعثا
بهديّة ، وهي عشرون صبيّاً من الخُصيان الصّقاليّة ،

وعشرون قنطاراً من صوف السمور ، وخمسة قناطير
من القصدير ، ومائتا سيف إفرنجية . فتقبل الحكيم
الهدية ، وعقد لهم على أن يهدموا الحصون التي تضر
بالشغور .

وتم الصلح بين الحكيم وملوك الفرنج ، فساء ذلك
أصحاب الجهاد ، وأخذ قوادته ووزراؤه يحثونه على
نقض الصلح ، فالتفت إليهم ، وقال :
« وأوفوا بالعهد ، إنَّ العهد كان مستولاً » .

وعكف الحكيم على خزانة كتبه ، يقرأ ما شاء له
شغفه بالعلوم ، وكان ذا غرام بالكتب ، حتى أثرها
على لذات الملوك ، فجمع من الكتب أربعة آلاف
مجلد ، وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم
والنواحي ، باذلاً فيها ما أمكن من الأموال ، حتى
ضاقت عنها خزائنه .

واصطفى الحكم جعفر بن عثمان المصحفى ،
 فاستوزره ، فكان أذنه التى يسمع بها ، وعينه التى
 يرى بها . واستفحل أمر المصحفى ، فصار الحاكم
 الناهى فى الدولة ، يُصرفُ أمورها ، ويسوسُ
 رعيّتها ، والحكم غارقٌ فى كتبه ، فقد مارس الحكم
 فى زمان أبيه ، صدرَ ولايته ، فزهد فيه .
 وأحبَّ الخليفة جاريته صبيحة (صُبْح) ، وكانت
 حسنة الصوت ، فكان يمضى الساعات يصغى إلى
 صوتها الحنون ، يتجاوبُ فى أرجاء قصر الزهراء
 بقرطبة . ووضعت له هشامًا ولىَّ عهده ، فرفعها من
 جارية جاءت من البشكنس إلى أميرة قرطبة ، وأمَّ
 ولىَّ العهد ، وصارت تُديرُ أمور الدولة هى
 والمصحفى .

ومَرَضَ الْحَكَمُ ، وَلَزِمَ فِرَاشَهُ ، وَكَانَ حِصْنُ
 فَرَكَنْسِيَتِ فِي قَلْبِ فَرَنَسَا ، قَدْ وَقَعَ فِي أَيْدِي
 الْعَرَبِ ، مِنْ أَكْثَرِ مِنْ ثَمَانِينَ سَنَةً ، وَكَانَ مَرْكَزُ
 جَمِيعِ الْعَرَبِ الْمُنْتَشِرِينَ فِي فَرَنَسَا وَشِمَالِي إِيطَالِيَا
 وَفِي سويسِرَةِ ، وَقَدْ رَأَى غَلِيوْمُ كُونْتِ بَرُوفَنْسَ ،
 أَنَّ الْفُرْصَةَ سَانِحَةٌ لَطَرْدِ الْعَرَبِ مِنْ فَرَنَسَا ، فَاسْتَنْفَرَ
 أَهْلِي بَرُوفَنْسَ ، وَدُوفِينِي السُّفْلَى ، وَنِيَسَ ، لِقِتَالِ
 الْعَرَبِ ، فَلَبَّوْا نِدَاءَهُ ، وَاجْتَمَعَ لَهُ جَيْشٌ جَرَّارٌ ،
 انْطَلَقَ إِلَى فَرَكَنْسِيَتِ ، مَعْقِلِ الْعَرَبِ الْحَصِينِ .

وَعَلِمَ الْعَرَبُ أَنَّ أَهْلِي الْبِلَادِ ضَيَّقُوا عَلَيْهِمْ مِنْ
 كُلِّ جَانِبٍ ، فَتَنَزَّلُوا مِنْ جِبَالِهِمْ وَسَارُوا إِلَى
 « دَارِجَنْمَان » ، وَدَارَتْ مَعْرَكَةٌ رَهِيبةٌ بَيْنَ الْعَرَبِ

وجيوش غليوم في « تورتور » ، انهزمَ فيها العرب ،
فثارَ الأهالي عليهم ، وراحوا يقتلون أثرهم ،
ويقتلون كلَّ من يقع في أيديهم .

وفرَّ بعضُ الناجين من المسلمين إلى الأندلس ،
وركبَ بعضهم البحر ، وذهبوا إلى سردينية ، وكانت
في يدِ المعزِّ لدينِ الله الفاطمي ؛ وكانَ المعزُّ قابضاً
على زمامِ الجزيرة ، قبل أن يتحركَ لفتح مصر .

وماتَ الخليفةُ الحكم ، وقد تركَ ابنه هشامًا ولمَّا
يبلغُ الحلمَ : فتقلَّدَ الأمورَ المتصورُ بنُ أبي عامر ،
وكانَ آيةَ باهرةٍ في البسالةِ والإقدامِ ، وحسنِ
التدبيرِ . فعزمَ على أن يُعيدَ للإسلامِ رونقه الأولَ ،
وأن يثبتَ الغاراتِ في أطرافِ بلادِ الفرنجة ، وأن
يحملَ الرؤيةَ الإسلاميةَ إلى بلادٍ لم تحقِّقْ فيها قبلَ تقلُّدهِ
لأُمُورِ الأندلسِ .